

الكتاب

تصدرها جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين

فهرست العدد الاول السنة الاولى

ص	
٦	جمعية ومجلة : يوسف عز الدين
٣	الاسلام والشعر : عبدالرزاق محيي الدين
١١	حديقة بن اليمان العبسي : محمود شيت خطاب
٢٢	الشعبي : جمال الدين الآلوسي
٢٨	المزبد : محمود غناوي الزهيري
٤٣	التطور في نظر علماء المسلمين : نعمان عبدالرزاق
٤٦	أمنية جديدة الى موطني (شعر) : خضر عباس الصالح
٤٨	المشكلات الاقتصادية في الشعر العامي : عبدالرزاق الهلالي
٥٨	نهضة العرب الفكرية : موسى كاظم نورس
٦٨	هجسات في ليل الصمت : محمود البستاني
٧٠	طبيعة الشعر في عصر الرسول : يحيى الجبوري
٧٩	طريقة المشروع في التربية : أحمد حسن الرحيم
٨٣	بنداد في رحلة ابن بطوطة : حبيب الراوي
٨٨	عازف الناي لطاغور (ترجمة) : ابراهيم الخال
٩٣	الهمومونات : ناظم شوقي
٩٧	المصير الاخير (قصة) : ابراهيم السعيد
١٠٥	نواذر المخطوطات : محمد هادي الاميني
١١١	أخبار الادب : فريد فتیان
١١٧	وفاة العبيدي الشاعر : قلم التحرير
١١٩	مكتبة الكتاب : قلم التحرير
١٣٣	نداء الى الاعضاء : سكرتير الجمعية
١٣٥	الموسم الثاني :
١٣٦	سنتنا الثانية : قلم التحرير

بغداد في رحلة ابن بطوطة

بقلم : حبيب الراوي
كلية البنات

في كتاب « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسعار » للرحالة العربي ابن بطوطة [٧٠٤ - ٧٧٩ هـ] نجد اخبارا متناثرة عن العراق بصورة عامة ، وبغداد بصورة خاصة ، ومع انه افرد لهذه المدينة موضوعا خاصا بها ، الا انه كان يعود بين الفينة والفينة مشيرا اليها ، ومن اسباب تناثر اخبار العراق في الرحلة ، انه كان هناك « العراق العربي » و « العراق العجمي » ويكونان تحت حكم سلطان واحد حيناً ، أو يتجزآن تحت حكم عدد من السلاطين حيناً آخر ذلك ان الدولة العباسية قد دالت وانتقل الحكم الى التتر الذين انتهى امرهم الى عدد من الامراء ينازع بعضهم بعضاً ، وثمة سبب آخر لتناثر اخبار العراق هو ان الرحالة كان يسير في طريق يجتاز هذا القطر الى قطر آخر ثم يعود اليه مرة أخرى عن طريق غيره ، اذ كانت خطته الا يسير في طريق واحد مرتين ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً فهو يرتحل من مكة ثم ينحدر الى الجنوب ميماً شطر شيراز ، وبعد ذلك يعود مرة أخرى الى العراق ماراً بالكوفة وبغداد ، ثم يذهب الى تبريز ويعود الى بغداد ويتجه بعدها صوب الموصل وماردين ونصيبين ، ويعود أدراجه الى بغداد ومرة ثالثة .

وفيما يلي سنحاول أن نجتمع ما تفرق من اجزاء الصورة التي رسمها ابن بطوطة ونلقي عليها شيئاً من الضوء :

لقد وصل الرحالة أرض العراق وهو ابن ثلاث وعشرين . وكان ذلك عام (٧٢٧ هـ) وهي تحت حكم التتر آنذاك ، تستمد سلطنتها من (بكين) عاصمة الصين حيناً ثم من مدينة « تبريز » ثم « السلطانية » في عهد « الحاي تو خداينده » (١) الذي يطلق عليه ابن بطوطة اسم « محمد خداينده » ويفسر سبب هذه التسمية .

(١) بروكلمان - من تاريخ الشعوب الاسلامية (الترجمة العربية) ٧٣ - ٢٧٥ .

المختلفة

ح المختلفة
ميان .

بالقيام
لمة . فسبب

فيه الطلبة

الصفحة

سة على هذه

ا في بعض

بي وغيرها

دروس تعتمد

سيد العملي .

عة هذه

ي قام بانجازه

بن منها ، ولذا

شخص وسيلة

اعدادا كافيا في

ومعناها ، فيقول اذا كان اسمه « خذابنده » فمعناه بالفارسية عبدالله ، وان قيل انما هو « نربنده » فمعناه غلام الحمار ، ويعمل سبب هذه التسمية ان التتر « يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته » فلما ولد هذا السلطان ، كان أول داخل الزمال ، (٢) .

لقد ورد ابن بطوطة بغداد ، في فترات متقاربة أكثر من مرة ، وكانت هذه المدينة آنذاك تابعة لغيرها ، كما اشرنا ، ولكن الرحالة ، كان يصفها كأنها حاضرة الخلافة (٣) ويبدو ان الذي أوحى اليه بهذه الفكرة هو رؤية السلطان ابي سعيد في بغداد مع حاشيته (٤) وزيره الامير غياث الدين ، الذي كان ابوه من مهاجرة اليهود .

وابو سعيد هذا قد ولي الملك وهو صغير السن ، استولى على الامور امير الامراء الجوبان ، وكان لهذا « الجوبان » ابن اسمه دمشق خواجه ، بلغ من الاستهتار حننا لم يستطع ابو سعيد التفاوضي عنه ، ذلك ان زوجة ابيه (أي ابي سعيد) واسمها دنيا خاتون ، قد دخلت عليه (أي على ابي سعيد) وقالت له : « لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه » .. ثم اردفت : « لقد انتهى أمر دمشق خواجه ان يقتلك بحرم ابيك وانه بات البارحة عند طغي خاتون ، وقد بعث الي وقال : « ابيت الليلة عندك .. » (٥) وهنا ثارت نائرة ابي سعيد ودبر خطة محكمة لقتل دمشق خواجه ، ونجحت الخطة ، وكان ابوه مع اولاده الاربعة بخراسان ، فجهز جيشا لقتل ابي سعيد ، فدارت الدائرة على الجوبان ، وانطلق مع اولاده لاجئين الى بعض الامراء الذين قتلهم واحدا بعد الآخر وارسلوا رؤوسهم الى ابي سعيد ، ويحاول ابن بطوطة ان يعلل فعلة اولئك الامراء تعليقات مختلفة أكثرها ينصب على خيانة تبدو من اولئك اللاجئين أو غدرا من الامراء ، ولكن يبدو أن قتل هؤلاء لم يكن الا ارضاء للسلطان ابي سعيد ، وللمبالغة في هذا الارضاء فانهم يرسلون اليه رؤوسهم ، ومما يلاحظ انه يطلق اسم السلطان حينئذ والملك حينئذ آخر على ابي سعيد وامثاله من الحاكمين .

(٢) الرحلة ص ٢٢٧

(٣) الرحلة ٢٢١ (٤) الرحلة ٢٢٨ (٥) الرحلة ٢٢٨

ويبدو ان
قد ملأت قلبه شه
ويردها أكثر مر
عليها الدهر بكذ
وطبيعتها ، من ذ
البغداي ومنها :
بغداد دار لا
ظلمت امشي

وللشاعر نف
سلام على بغد
فوالله ما فارقتها
ولكنها ضاقت
وكانت كخزل

الى غير ذلك
ويشير ابن ج
بعد ان فقدتها في اله
بن الحاج أحمد اعز
الزجاج ، ومعه ابن
أربعة وعشرون ألف
الى ابن أخيه .

ولعل هذا هو
لفقدانهم ، بل أشار ا
لقيه في أحد المساجد
يشير الى طريقة التدر
طلما رفعوا أركان العا

(١) الرحلة ص ٢٥

ن قيل انما
يسمون
كان اول

كانت هذه
ها حاضرة
ن ابي سعيد
مهاجرة

مير الامراء
الاستهتار
سعيد
لو كنا
لقد انتهى
تون ، وقد
ودبر خطة
الاربعة
، وانطلق
وارسلوا
راء تعليقات
ن الامراء ،
الفة في هذا
لطان حينا

ويبدو ان الصورة التي ارتسمت في ذهن هذا الرحالة منذ صفره عن بغداد ،
قد ملأت قلبه شوقا اليها ، فه ويسجل أبياتا من الشعر ، كان ابوه يقرأها عليه
ويرددها أكثر من مرة ، منها ما ينطوي على البكاء والتفجع على المدينة التي أناخ
عليها الدهر بكل كلكه وألبسها ثوب الاسى ، ومنها ما يشيد بمحاسنها وجمالها
وطبيعتها ، من ذلك قول القاضي ابي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي
البغدادي ومنها :

بغداد دار لاهل المال طيبة وللمقاليس دار الضنك والضيق
ظللت امشي مضافا في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق
وللشاعر نفسه أيضا :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها من السلام المضاعف
فوالله ما فارتها عن قلبي لها واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها ولم تكن الاقدار فيها تساعف
وكانت كحل كنت أهوى دنوه واخلاقه تنأى به وتخالف

الى غير ذلك من الابيات التي استشهد في تصوير حال بغداد آنذاك .
ويشير ابن جزي ، وهو الكاتب الذي أملى عليه ابن بطوطة مذكراته هذه ،
بعد ان فقدوها في الهند الى النكبة التي حلت ببغداد نقلا عن قاضي القضاة ابي البركات
بن الحاج أحمد اعزّه الله ، قال سمعت الخطيب ابا رشيد : لقيت بمكة نور الدين بن
الزجاج ، ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث ، فقال لي : هلك في فتنة التتر بالعراف
أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك . وأشار
الى ابن أخيه .

ولعل هذا هو السبب الذي حدا بابن بطوطة الا يتحدث عن علماء بغداد
لفقدانهم ، بل أشار الى واحد منهم هو ابو جعفر عمر بن علي القزويني السني
لقيه في أحد المساجد^(١) ويورد حديثا مقتضيا عن المستنصرية اما النظامية ، فهو
يشير الى طريقة التدريس فيها دون أن يذكر أحدا من العلماء والاساتذة الذين
طلما رفعوا أركان العلم في هاتين المدرستين .

(١) الرحلة ص ٢٢٥ (٢) الرحلة ص ١٧ (٣) ص ٢٠٤

عليها ، ويسر ا.
عمة السلطان ال
وعلى الج
صورا فريدة ،
بها هذا الرحالة
أمانة واخلاص
أو بعض اجزائه

ويبدو أنه كان يؤمن بكرامات الاولياء والصالحين والمتصوفين ، فهو يعدد
ويزور قسور هؤلاء في أي بلد يحل به ان كانوا أمواتا ، ويذهب للقائهم ان كانوا
على قيد الحياة ويذكر عنهم بعض الحوادث الخارقة ، من ذلك ما ذكره عن
الروضة وكيف يشفى المعتقدون فيها^(٢) ، ومن ذلك كرامة للقاضي مجاهد الدين
حين أراد السلطان محمد خدابنده أن يقتله ، فلم يستطع ، ثم أكب على رجله
لثما وتقيلا^(٣) وغيرها من الحوادث الخارقة الشيء مما تقبله ابن بطوطة .

وابن بطوطة لا يقف طويلا عند ذكر العادات والتقاليد الاجتماعية في بغداد ،
بل يشير اليها اشارات عابرة ، كالعادة المتبعة في زيارة مقابر الاولياء والصالحين ،
والطعام الذي يقدم للغرباء في الزاوية القائمة عند ابي حنيفة ، ولعل مرد هذا
الايجاز الذي تعمد ، هو انه كان يتوخى الاخبار الطريفة والوقائع والاحوال غير
المألوفة ، وقد وجد الكثير منها في الاقطار النائية كالهند والصين وبعض أقطار
افريقية ، لذلك نجده يقف عندها طويلا .

ومما يجلب انتباهه المركز الممتاز الذي كانت تتمتع به الخواتين (جمع
خاتون) فاذا أراد السلطان أن يمضي أمرا كتب فيه « عن أمر السلطان والخواتين »
ويصور مركز الخواتين في موكب الملك ، حين سفره فقد بولغ في ترتيب الجنود ،
واجراء تمارين مصحوبة بالموسيقى ودق الطبول يفهم منها تكريم الملك ، فاذا
نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة ، وتنزل كل خاتون من خواتينه
في محلة على حدة ، ولكل واحدة منهن الامام والمؤذن والقرار والسواق .. »^(١)

ويشير الى سفره الى تبريز صحبة علاء الدين ، ويبدو انه وزير هناك ، وفي
هذه المدينة يقابل السلطان ولا يشير الى اسمه ، انما يشير الى رسالة وجهها الى
والي بغداد خواجه معروف ، لكي يزوجه بالزاد والركوب ، وكان ذلك سبب
عودته الى بغداد^(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن موت ابي سعيد ، الذي تحيط به الشكوك ، وقد
ظن ان احدى نسائه قدمت له السم فمات ، فاستقل كل أمير بولاية واصبح سلطانا

عليها ، ويسر المؤلف أسماء أولئك الامراء ، وكان من بينهم الشيخ حسن ابن
عمة السلطان السابق ، والذي أصبحت بغداد من نصيبه .
وعلى الجملة فان رحلة ابن بطوطة تعد أثرا رائعا في التراث العربي ، يقدم
صورا فريدة ، تتطوى على ملاحظات دقيقة عن أحوال الممالك والامصار التي مر
بها هذا الرحالة في الشرق والغرب ، فسرد ما وصل الى سمعه وبصره بكل أمانة
أمانة واخلاص ، لذلك فقد عني بها المستشرقون في العصر الحاضر ، ونقلت كلها
أو بعض اجزائها الى أكثر من لغة من اللغات الحية .

و يعدد
ان كانوا
سره عن
سدالدين
رجليه

في بغداد ،
صالحين ،
رد هذا
احوال غير
حض أقطار

، (جمع
والخواتين ،
يب الجنود ،
الملك « فاذا
من خواتينه
واق ... » (١)
ر هناك ، وفي
الة وجهها الى
ن ذلك سبب

شكوك ، وقد
واصبح سلطانا